

## مقاربة في النظرية اللسانية عند شومسكي

د.سومية بوقسمية

المركز الجامعي عين تموشنت

لقد حصل في ميدان تعليم اللغات تقدماً كبيراً لا في النظريات فقط، بل وفي استغلال هذه النظريات عملياً في التعليم باعتبار مسألتها تعليم اللغات وتعلمها من بين المسائل والاهتمامات الحضارية التي تفرض نفسها بقوة في المجتمع المعاصر بفعل التغيير الاجتماعي والتغيير اللساني.

أمام التطورات التي تشهدها اللسانيات التعليمية والصعوبات التي غدت تواجهها في الوقت ذاته، وذلك لعدم معرفة كيفية تطبيق هذه المستجدات والاستفادة منها في الإطار التربوي. كان لزاماً على المعلم (المدرس) الإطلاع على النظريات اللسانية ومفاهيمها المختلفة للقيام بدوره كما ينبغي وبشكل تام أثناء عملية التبليغ، فاللسانيات التربوية التي تندرج ضمن اللسانيات التعليمية تطالب المعلمين بضرورة التركيز على الكفاءة اللسانية والأداء اللساني خاصة وأنها المجال النظري الذي يعتمد عليه علم النفس في عملية التدريس. حيث تعدّ اللسانيات التوليدية وسيكولوجية اللغة المجال الذي تموضع داخله هذا العلم.<sup>1</sup>

إن أهم ما يميّز اللسانيات المعاصرة هو النحو التوليدي التحويلي الذي يعدّ أكبر دليل على تطور اللسانيات بعد الحرب العالمية الثانية؛ ولويد الحركة التشومسكية بطرحها للعلاقات التركيبية الأساسية على أنها عامة وبارازها للمعطى اللغوي السطحي اعتماداً على عمليات تحويلية.<sup>2</sup>

فالنظرية التوليدية التحويلية تتوجه عامة إلى الإنسان صاحب اللغة أو ما يسمّيه "تشومسكي" بالمنجز المثالي في مجمع لغوي متجانس يعرف لغته معرفة كاملة، وهو شرط ضروري لأن الغاية هي محاولة الوقوف على القوانين الإنسانية التي تجعل الإنسان يتميز بهذه القدرة على أداء اللغة، الطاقة اللغوية التي تمثل البنية العميقة للكلام عند المتكلم بمعنى السامع المثالي، والبنية السطحية بمعنى ما ينطقه الإنسان.<sup>3</sup>

فالانشغال الأساس الذي قامت عليه هذه النظرية كان حول أبحاث النحو من دائرة المعاني المتناثرة ومحاربة مسألة الخلط بين النحوية والمعنى أي أنّ الجملة هي المعول عليه في هذه النظرية، فقد تكون سليمة نحويًا لكن ليس لها معنى. وفي السياق ذاته يذهب تشومسكي في كتابه "البنى التركيبية" الذي يعدّ ظهوره تاريخاً لظهور التوليدية التحويلية إلى مسألة

استقلالية نظام القواعد، بمعنى أن تحديد قواعدية الجملة لا يتفق مع كل ماله معنى، إنما قد تكون الجملة قواعدية ولا معنى لها. وهو بهذا يضع ثلاثة أنواع من القواعد لنظريته<sup>4</sup> :

**1- القواعد التوليدية:** هي التي تولد الجمل السليمة نحويا فهي عبارة عن جهاز يحتوي على أبجدية رموز تعد بمثابة معجمه حيث يستطيع مستخدم اللغة أن يفهم جملا وتعبيرات لم يسبق له أن سمعها، فشومسكي يرى أن الجمل تولد عن طريق سلسلة من الاختبارات، أي أن اختيار العنصر الأول يفرض علينا اختيار العناصر التي تأتي بعده وترتبط به وبهذا يتم التركيب النحوي للجملة. فمثلا في الجملة (هذا الرجل اشترى بعض الخبز) لو اخترنا كلمة (هذه) بدل (هذا) فإن هذا يستلزم إتباع هذه الكلمة بصيغة المؤنث (المرأة) وكذلك نتبع (المرأة) ب(اشترت)، وعليه فإن عملية بناء الجملة وتوليدها يعتمد على مبدأ الاختيار<sup>5</sup>.

**2- القواعد التحويلية:** هي القواعد التي يمكن بواسطتها تحويل الجملة من صيغة إلى أخرى تتشابه معها في المعنى، وذلك مع ملاحظة علاقات الجمل المتماثلة والإجراءات التي تحدث لتجعل جملة على مستوى السطح تختلف عن الجمل الأخرى<sup>6</sup>.

وذلك عن طريق: الحذف / التعويض / التوسيع / الاختصار / الزيادة / إعادة الترتيب / التقديم. ومن هذا يتضح أن القواعد التحويلية تولد عددا كبيرا من الجمل انطلاقا من البنية العميقة نحو بنيات سطحية متعددة وهو ما أدى إلى إغناء اللغة العربية في ظواهرها العامة وتعدد أساليبها.

**3- القواعد الصوتية والصرفية:** وتتمثل في مجموع القواعد الصرفية والصوتية التي تحوّل الجملة من صورتها المورفيمية إلى صورتها الفونيمية بمعنى إعادة كتابة العناصر كما تُنطق بها. لأن إدراك العلاقة بين الألفاظ والبنى ومدلولاتها تجعل المتعلم يسرع في التحكم في هذه اللغة بكيفية سهلة ويتقنها، ونجاح الممارسة اللغوية يتوقف عليها نجاح العملية التعليمية.

فما أنجزه تشومسكي ساهم في تطوير اللسان اللغوي، خاصة أمام التمزق اللغوي الذي يعانيه الفرد بين تعدّد اللهجات والفصحى. لأنّ من "الأهداف التي يسعى إليها ميدان تعليم اللغات هو إيصال لمعطيات لغوية مادة وصورة، والعمل على ترسيخها، وهذا الترسّخ لا ينحصر في تحصيل تلك المعطيات، بل في خلق القدرة على التصرف فيها"<sup>7</sup> والتعامل مع قواعدها بفعل الممارسة، وهو ما يأمل اللغويون تحقيقه في الحياة الإنسانية العامة. فكثير ممّن يتكلمون اللغة العربية مثلا نجدهم لا يتقنون قواعدها أو لا يحرصون على ذلك أثناء العملية الكلامية والعلّة في ذلك ليس لعدم معرفتهم بها وإنما لما اعتادوا عليه من أن مسألة القواعد النحوية

والصرفية والصوتية تنحصر ضمن إطار النظام التعليمي التربوي أو في المجالس العلمية... إلخ. ولعلّ هذا كلّ انعكس سلباً على اللغة العربية وأدّى إلى إهمالها.

ويدخل في هذا الإطار الربط بين جهود علماء العرب القدامى في دراسة النحو العربي ونظرية تشومسكي (التوليدية التحويلية) ومدى العلاقة التي تربط التراث اللغوي القديم والبحث اللغوي الحديث. فالمبادئ التي ينادي بها تشومسكي لا تختلف مع ما جاء به النحو العربي فهو يلتقي معها في عدة جوانب أولها الأساس العقلي، بالإضافة إلى جوانب أخرى يلتقي فيها التحويليون مع نحاة العربية منها:

- قضية الأصالة والفرعية: وتعد من أهمّ قضايا النحو العربي وهي ما يقابل التركيب الباطن أو العميق والتركيب السطحي.

- قضية العامل: ويعد حجر الزاوية في النحو العربي ونشأت هذه الفكرة نشأة لغوية انطلاقاً من التأثير والتأثير والتفاعل بين الأصوات والحروف، وانتهاء بالمؤثرات الفاعلة في تغيير أواخر الكلمات داخل التراكيب المختلفة. وقد حظيت المسألة باهتمام كبير من اللغويين ومنهم تشومسكي.<sup>8</sup>

❖ نظرية النحو التوليدي التحويلي:

أسّس تشومسكي نظريته هذه وفق نموذج جديد للتفكير في اللغة، أفرز مجموعة من الإشكالات يجب أن يهتم بها اللغوي ومن ضمنها الاهتمام بالجهاز الداخلي الذهني للمتكلمين عوض الاهتمام بسلوكهم الفعلي.<sup>9</sup> ويتمثل هدف هذه النظرية في الوصول إلى ما يسمّى باستيفاء التفسير.

ولهذه المدرسة أهمية بالغة في علم اللسان المعاصر، وهي تقوم على مبادئ أساسية أهمّها:

أ- **الاكتساب اللغوي**: يرى تشومسكي أنّ المذاهب السلوكية هي مذاهب تبسيطية تجعل الإنسان كالآلة، فاللغة من منظور السلوكية مجموعة عادات صوتية يكفيها عالم البيئة لكي يتحقّق اكتسابها. فالتكلم يسمع جملة معينة أو يحسّ إحساساً معيناً تتولد لديه استجابة كلامية من دون أن ترتبط هذه الاستجابات بأي شكل من أشكال التعبير.

فعملية اكتساب اللغة عند الطفل تندرج ضمن نظرية التعلم، فهي من منظور السلوكية شكل من أشكال السلوك الإنساني، لذا لا يقرون بوجود أي تباين واختلاف بين تعلم اللغة وتعلم أية مهارة سلوكية أخرى، ويعتمد السلوكيون مبدأ التعميم لتفسير استعمال الطفل الكلمات والتراكيب ويتمثل الاتجاه السلوكي بصورة واضحة وجلية في كتاب سكينز السلوك الكلامي.<sup>10</sup>

يرى السلوكيون أنّ طريقة اكتساب معاني الكلمات بالنسبة للطفل يكون بقدر اكتشاف للأشياء التي تشير إليها الكلمات عبر اقترانها بالكلمة التي يتلفظ بها، يكتسب مدلولات تلك الكلمات ثمّ يتمكن أخيراً عن طريق المحاولة حيناً والخطأ حيناً آخر من تركيب الجمل تركيباً صحيحاً. وركز المنهج السلوكي على السلوك الخارجي للإنسان معتبراً إيّاه مادة التحليل اللساني، مهملاً كلّ العمليات الداخلية التي هي مصدر هذا السلوك<sup>11</sup>.

وهذا التحليل رفضه تشومسكي، ذلك أنّ منهج النظرية التوليدية هو منهج ذهني يجعل ملكة اللّغة قدرة فعالة غريزية وفطرية وهي قدرة تخص الإنسان وحده، وأراد تشومسكي من خلال ذلك أن يشرح اللّغة ويعلّل أسبابها من الداخل وليس من الخارج وكانت حجّته في ذلك تعلم الأطفال الصغار لأنّ اللّغة تتعلم بشكل تطوّري سريع دون النّظر إلى العوامل الخارجية التي تتدخل في هذه العملية، سواء كانت البيئة أو الجنس، ويرى أنّ "العمليات اللغوية هي عمليات مرتكزة على أسس بيولوجية، ثمّ أنّ أية محاولة لشرح الظاهرة اللغوية بمصطلح سلوكي إنّما هي تجاهل للخلق اللغوي عنده"<sup>12</sup>.

ويرفض تشومسكي فكرة أنّ الطفل ينمي بمفرده القواعد التي تنتج الجمل المحتملة والتي تندرج ضمنها تراكيب كلامية لم يسمعها من قبل، والتي لا يمكن التكهّن باحتمال ورودها في الكلام، وذلك أنّ الحياة - حسب أراء السلوكيين - أصبحت صعبة التحقيق، إضافة إلى ذلك أنّ الطفل لا يمكن أن يركب جملاً صحيحة، انطلاقاً من الجمل التي يسمعها من الملقنين له وبما أنّ هذه الجمل التي يسمعها هي في الغالب ناقصة ويشوبها التحريف من حيث بناؤها اللغوي.

والتوليدية التحويلية ترى أنّ الإنسان يكون مفهوم اللّغة وهو مختلف عن الحيوان الذي أجريت عليه التجارب من حيث أن الإنسان يمتلك ملكة فردية تكون كفاية اللّغوية. وعليه يكون مفهوم اللّغة على أنّها سلسلة متتابعة تقوم على العادات السلوكية (الكلامية) لا يتواءم أبداً مع الناحية الإبداعية في اللّغة، ولا يراعي حقيقة الإنسان العقلية<sup>13</sup>. وبهذا فإنّ تشومسكي يختلف مع السلوكيين حول مسألة اكتساب اللّغة، فهو يرى أنّ الاكتساب اللغوي بنية معطاة بصورة مسبقة إلى الطفل ولا يتم بصفة تدريجية كما يرى السلوكيون.

ب- الإبداعية اللّغوية: إنّ الصفة الإبداعية للغة هي مقدرة الإنسان على إنتاج جمل لا حصر لها دون أن يكون قد سمعها من قبل. وقد ركّز تشومسكي على أنّها إحدى الصفات الأساسية

التي تتمتع بها اللغة" فاللغة تتسم بميزة أساسية من حيث أنها توفر للإنسان الوسائل اللازمة لكي يعبر بصورة غير متناهية عن أفكار متعددة"<sup>14</sup>.

فهذه الصفة الإبداعية خاصة بلغة الإنسان وحدها وهو ما يميزها عن لغة الحيوان، كما أنها تساهم في إنتاج الدلالات وتوليد المعاني، تبرز كإحدى السمات الأساسية التي تتمتع بها اللغة وقد تمت الإشارة إليها كثيرا في النظري الكلاسيكية لا سيما عند ديكرت<sup>15</sup>. يمكن القول إن الفلسفة الديكارتية كانت المنطلق الأساس والمنبع الفكري الذي قامت عليه النظرية التشومسكية (اتباع المنهج العقلي، الشرح والتعليل..). وقد كانت هذه محاولة لإبراز مبادئ التوليدية التحويلية وأهميتها في الدراسات اللسانية المعاصرة.

#### الهوامش:

- 1- ينظر: صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، ص 75- 76.
- 2- ينظر: جان بيرو، اللسانيات، تر: الحواس مسعودي ومفتاح بن عروس، دار الآفاق، الأبيار- الجزائر، 2001، ص 107.
- 3- ينظر: راجح بوحوش، اللسانيات وتطبيقها في الخطاب الشعري، ص 22.
- 4- ينظر: بوقرة نعمان، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، منشورات جامعة باجي مختار- عنابة، 2006، ص 156- 157.
- 5- ينظر: جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص 41- 103.
- 6- صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، ص 79.
- 7- المرجع نفسه، ص ن
- 8- أحمد المهدي المنصوري وأسمهان الصالح، النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقاتها في النحو العربي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد 29، شباط 2013، ص 328.
- 9- ينظر: عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، منشورات عويدات، بيروت، ط 1، 1986، ص 65.
- 10- ينظر: بوقرة نعمان، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ص 152.
- 11- ينظر: مازن الوعر، حول بعض القضايا الجدلية لنظرية القواعد التوليدية التحويلية، مجلة اللسانيات، ع 6، ص 25.
- 12- المرجع نفسه، ص 25.
- 13- ينظر: بوقرة نعمان، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ص 153.
- 14- ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، ص 28- 29.
- 15- ينظر: بوقرة نعمان، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ص 156.